الاخ (فرا) غريفون وجبل لبنان

في القرن الخامس عشر

(الاب متري لامنس اليسوعي)

(تابع لما سبق)

٥

قبل ان نتبع الاخ غريفون في تفاصيل رسالته علينا ان نلمّ ايضاحاً لما يأتي بوصف حالة لبنان في اواسط القرن الخامس عشر

لم تكن الطائفة المارونية بلغت في تلك الايام شأوًا بلغته من بعد. فكان معظم ابنائها يسكنون شمالي لبنان من جهات الارز وكانوا في قضاءَيْ جبيل والبترون بين المتاولة (١ والتركمان (٢ وابنيتهم الى الجنوب لا تكاد تتعدّى نهر ابرهيم (٣ والنازحون منهم قد جعلوا وجهتهم وردس وقبرس حيثما عمّروا تحت لواء لوزينيان ثلاثين قرية وقصبةً. بيد انّ الموارنة كانوا من ذلك الحين يُعَدُّون شعباً كبيرًا في الاقطار السورية. فقد روى غليوم رئيس اساقفة صور انّ اربعين الفًا من الموارنة دخلوا انطاكية سنة ١١٨٢ (٤. وفي القرن الرابع عشر وصف لُودُلف دي سُوخم لبنان «بجبل غطّاه كثير من القرى والقصبات الآهلة كلها بسكان مسيحيين لا يحصى لهم عدد» (٥

وكان يسوس الموارنة في الروحيات بطريرك كرسيّهُ رتنذر في قنُّوبين (٦ ولهُ من المعاونين اساقفة كثيرون. ولمّا وصل غريفون الى لبنان كان الجالس على السدّة

---

١) كان المتاولة مقيمين في المُتَيطرة

٢) راجع اخبار الاعيان وجه ٣٤٦

٣) ذكر الثيروني انهُ في ايّامه اي في القرن السابع عشر كان الموارنة قد اخذوا يتدون في كسروان وقد ملأوا فيه قصبة غزير الواسعة (Evoplia Fidei, 91)

٤) Historia belli Sacri l. XXII, c. 8. – وكذلك جاك دي ڤتري يذكرهم كأمّة كثيرة العدد

٥) De Itinere Hierosolymitano وهو كتابٌ قديمٌ ونادر في مكتبة روسيانا بثينا. لا أعداد لصفحاته وليس فيه تاريخ وما ذُكر مكان طبعه

٦) منذ ١٤٣٩: الدويهي وجه ١٣٥

البطريركية يعقوب الحادثي(١ الذي دامت رئاسته نيفاً واثنتي عشرة سنة . قام بعده بطرس ابن يوسف ابن يعقوب الملقّب بابن الحسّان وهو ايضاً من الحدث

واما في الامور الزمنية فكان لكلّ قضاء والٍ او امير يُلقّب بالمقدّم . وهذا المنصب وراثيّ ولكن غير مستقلّ عن امراء الشراكسة والمماليك في مصر . لانهم طالما تعرضوا لشؤون لبنان الداخلية . والقلقشندي الكاتب المصري المتوفّى سنة ١٤١٨ يذكر في لواحق نيابة طرابلس « ولايات جُبّة المُنيطرة (٢ وجُبّة بُشَرّيه (٣ وجُبّة اَنَفَة (٤ »

وفي تواريخ الموارنة ذكر لمقدّمي بُشَرّي والبترون وجبيل والعاقورة الخ . ويظهر ان مقدّم بشرّي كان لهُ منذ القرن الخامس عشر الاسبقية على الاخرين فيحكم كامير على لبنان(٥ . اما من جهة اللغة فبقيت اللغة السريانية في بعض الاماكن من شمالي لبنان وزاحمتها العربية التي بدأت تمتدّ في كل الجبل . ولكن في الكتابة لم تزل تُستعمل الاحرف السريانية دون سواها حتى في كتابة العربية (٦ . ولمّا كان غريغون متضلّعاً في كلتا اللغتين تمكّن من مباشرة العمل دون ابطاء . واول ما استأنف انظارهُ مسألة الطقوس والاحتفالات الكنائسية

٦

وعلى ما روى كاتب فرنسيسكاني (٧ في ذاك العصر وقد استعار عبارات الكردينال

---

١) توفي سنة ١٤٥٨

٢) وفي كتابه منيطرة وهو تصحيف

٣) قال « والجاري على الالسنة بشرّاي »

٤) على شاطئ البحر في جنوبي طرابلس — راجع القلقشندي وجه ١١٧٧ و ١٢٣٨ وكتابهُ مخطوط في مكتبة كليتنا

٥) الدويهي ٢٧٩

٦) جاك دي ڤيتري Historia Hierosolymitana I, ch. 77, apud Bongars — وروى بواس لوقاس (١ : ٢١٦) ان في كثير من القرى المجاورة للارز كانوا يتكلمون بالسريانية في القرن السابع عشر — والفرنسيسكاني اوجين روجه في كتابهِ « الاراضي المقدسة ٧١ » يورد نفس الشيء . ومثلهما دي لاروك في ترجمة حياة المسيو شاستويل وجه ٦٠ وروى نيرون (Evoplia, 89) انه في بشرّي وثلاثة قُرى مجاورة كانت السريانية يتكلم بها حتى النساء . ويخبر كثيرون من هؤلاء المؤلفين انّما كانت سريانية ممزوجة بالعربية

٧) هذا الكاتب اسمهُ م غلاسبرغر لا يهمل في ما نقله عن جاك دي ڤيتري الّا عصمة القول

جاك دي فتري « ان الموارنة امة كثيرة العدد تسكن جبل لبنان في جهات بيبارس (جبيل) رجالها يتسمّون بالقسيّ والنبال ولهم خبرة بشؤون الحرب . وهم وحدهم بين الشرقيين يحافظون على عوائد اللاتين ولا سيما في الفروض ومنح الاسرار ويخضعون لرومية كل الخضوع . ولمّا كان مطارنة المشرق لا يعرفون الخاتم ولا التاج ولا العكاز ويقرءون عوض الاجراس بعصاً او بمطرقة على خشبة ليدعوا المؤمنين الى الصلاة فالموارنة دليلاً على خضوعهم اتخذوا هذه العوائد كلها » (١

فالموارنة كما يتضح ذلك كانوا من قبل الجمع اللبناني المشهور بقرون كثيرة يسعون في التقرب ما امكن من رومية في الطقوس الكنسية . وابتدأ هذا التقرب من زمن الصليبيين

وهاك ما قال في هذا الصدد كاتب ماروني واقف حقّ الوقوف على تاريخ طائفته (٢ « ان ما اتّصف به بطاركة طائفتنا المغبوطين من شدة الغيرة على ازدياد أمّتهم في الاتحاد مع الكنيسة الرومانية امّ جميع الكنائس ومعلمتهنّ كان يحملهم على الابتعاد عن عوائد كثيرة طقسيّة وان كانت في نفسها مستحسنة رغبةً في التقرب من الكرسي الرسولي . ولا يخفى على من لهُ إلمام بتاريخ عاداتنا القديمة وما نمارسهُ اليوم ان هذا الابتعاد قد ابتدأ عندنا منذ عهد رجوع بطريركنا ارميا العشيتي من رومية عام ١٢١٥ . فانّ اكليروسنا من ذلك الوقت اخذ يلبس الثياب والحلل الموافقة لثياب وحلل اللاتين ويجتهد في التقرُّب من الكنيسة الرومانية في كل شيء . »

ورغماً عن حبّ التقرّب هذا كانت لم تزل الفروق الطقسية كثيرة ولم تبرح الكنيسة المارونية في القرن الخامس عشر تحافظ على عوائد شرقية محضة . فكان الكهنة مثلاً يباركون زيت العماد ويدهنون المؤمنين بالميرون بعد عمادهم (٣ . وكذلك يُعطى القربان الطاهر للصغار حالاً بعد الاعتماد . وفي مدة الصوم الكبير كان يقام يوميّاً قدّاس

بعشيشة واحدة في المسيح . ونظنّ ان الاهالي عن تعمّد لانّ غلاسبرغر كاد يعاصر غريغون وامكنه ان يستشير رفقاءه في رسالته فلم يُجزْ لنفسهِ ايراد تلك التهمة

١) لودولف دي سوخم الزائر عام ١٣٣٦ كان ابدى هذه الملاحظات نفسها وقال ايضاً انهُ رأى مطارنة لاتين يقومون لسيامة اساقفة الموارنة « Eorum episcopos ab archiepis-copis latinis vidi consecrari »

٢) رشيد افندي شرتوني في مقدمة « منارة الاقداس » ص ٧ ٣) الصفحة ٨

البروجزمانات اي ما سبق تكريسهُ (Προηγιασμένα) كما عند الروم . وما زال الموارنة حتى اواخر القرن السادس عشر يتناولون القربان تحت الشكلين (١

ولما كان المرسل الفرنسيسكاني بعيدًا بالامور واسع العقل ايد ما امكنهُ رأي الحافظة على الطقوس القديمة ودافع لدى الكرسي الرسولي عن هذا المبدإ حتى نال الموارنة ان يحفظوا « كثيرًا من الفوائد الخاصة بالكنيسة الشرقية » (٢

واجتهد غريفون كما روت سجلّات رهبانيته في تشييد كنائس جديدة بلبنان . وكان قد بُني في ايام الصليبيين عدد منها لم يزل بعضها حتى عصرنا . قال المسيو ريّ « ان الموارنة كان لهم النصيب الوافر من تقدّم الفنون بسوريا في تلك الازمنة . فكنائس حاطون وميفرق وحلتا وشبطين وبجديدة ومعاد وكروه وسمار جبيل وكنيسة مار تقلا في جبيل بُنيت على نسق يجمع بين الهندسة السورية والبزنطيّة . وذلك موضوع بحث مفيد لمن اعتنى بدرس الآثار السوريّة في القرون المتوسطة بلبنان . فكنائس ايذه وبجديدة وكفر سليان وناروس تحتوي نقوشًا سوريّة تستلفت الابصار ولم تزل سالمة . ومن درسها يمكن كما قال المسيو ريان الحصول على كمال تاريخ الفنّ البزنطي » (٣

ولم يكتفِ غريفون بتشييد المعابد بل اصلح الخلل في امور شتّى (٤ ولا يسعنا الاّ التعبير بلفظة خلل عمّا وصفهُ الكتّاب الفرنسيسكان . اذ لا يمكن القول بان المراد اضاليل في العقيدة لان الذين ينكرون على الموارنة ثباتهم الدائم في الكثلكة هم انفسهم يقرّون بانهم من بعد المجمع الفلورنتيني كانت تعاليمهم لا عيب فيها . فالمراد اذن الامور التهذيبية

---

١) دندني وجه ١٢٧ – وفيلامون يُثبت الامر نفسهُ – وفي ٦ تموز سنة ١٥٨٧ رأى ارنست فون بُوسِكْ رهبان قنوبين « يناولون القربان الطاهر بملعقة » Röhricht, 157 – وفي المؤلّف نفسهُ وجه ٥٣ نبذة عن موارنة ألماغوسة بقبرس

٢) البراءة الاولى من لاون العاشر في ١٥١٥ الى بطريرك الموارنة في مجموعة براآت مطبوعة في القرن السادس عشر ومحفوظة في مكتبة الآباء اليسوعيين بڤينا « Bibliotheca Rossiana ». وقد نشرها الدكتور هِفِله (Conciliengeschichte) زاعمًا انها غير مطبوعة

٣) E. Rey 79, Les Colonies franques en Syrie – الدويهي ١٠٣ و ١١٢ – Renan, Mission de Phénicie, 229, 236, 240, 259.

٤) « errores ablegavit »

التي لا تملُّق لها البتة بالمعتقد او الخلل الذي يمكن وقوعه حتى بين الامم الشديدة الحرص على المبادئ الكاثوليكية

وما عدا ذلك فقد كان في لبنان اماكن يسكنها اليعاقبة . فالادريسي يذكر من هذا القبيل ثغر جونية (١ . والدويهي ينبئنا عن وجود كثيرين من اليعاقبة في بلاد الموارنة يبذلون الوسع في نشر اضاليلهم . وربما عنى بذلك الكتب والتعاليم التي كان يسعون بثها بين المؤمنين . ومما ساعدهم انَّ اللغة والطقوس واحدة فتوفرت من ثمَّ اسباب الاختلاط التي كثيرًا ما اضرَّت بصحة العقيدة كما يشير الى ذلك المؤرخون الموارنة (٢

٧

وعلى كلّ مهما كانت اسباب هذه الشوائب الاعتقادية او التهذيبية فان مساعي غريغون في استئصالها تكللت بالنجاح . فتمكن من اعادة الدين الى جمال رونقه عند شعب جمع في كل حين بين التقوى واخلاصه للكنيسة

ولم تخلُ هذه الاصلاحات من المقاومة . فانَّ بعض الموارنة وهم قرٌّ يسير عدُّوا غيرة المرسل في غير حينها . لكنَّ معارضتهم لم يقم لها قائمة لولا معاضدة احد المتقدمين الذي لم يذكر الكتّاب اسمهُ . فلا يمكن القول انه عبد المنعم بن سينا بن يعقوب (١٤٦٩) ولا ابن اخيه ورزق الله بن جمالَ الدين بن سينا خانَه وكلاهما شديد التملُّق بالدين الكاثوليكي . ولعل المراد هو عبد المنعم ايوب ابن اخي رزق الله المذكور لانه كان من اعظم انصار اليعاقبة . نعم انهُ لم يتولَّ الامر الاَّ عام ١٤٧٢ بيد انه كان نافذ الكلمة في عهد عمّه ولم يصبر الى حين موته ليجاهر بامياله (٣

وقد روى المؤرخون الفرنسيسكان ظهور معجزة عن يد غريغون نوردها على علاّتها فكأنها تمّت لتأييد اعماله . قيل كان هذا المرسل الغيور يعظ المؤمنين في الكنيسة وكانت الشمس قد مالت الى الغروب فاذا بالواعظ يُري الحاضرين الاشعَّة داخلةً الى الكنيسة من الشرق . وزاد المؤرخون انَّ الموارنة اخذوا من ثمَّ يحتفلون في مثل ذلك اليوم اي عيد انتقال العذراء او عيد السيّدة بتذكار هذه المعجزة

١) فلسطين وسوريا للادريسي . وجه ١٧ من النصّ العربي (ed. Gildemeister)

٢) الدويهي ١٢٩ — دندني ١٢٧ — السمعاني يورد الاسباب عينها

٣) راجع الدويهي ١٤٠ و ١٤١ و ٤١١

لقد اسعدنا الدهر ان نشهد هذا العيد احتفالاً بين الموارنة ولم نسمع من يذكر ذلك الامر العجيب. والملأمة الدويهي يقول انه لا صحة لظهور هذه الاعجوبة بل هي اقاصيص عجائز

ذلك كلامٌ لا يقبل ابهاماً. فضلاً عن انَّ اثبات المعجزات يقتضي الفحص والتدقيق والبراهين الدامغة. وعلى كلٍّ فتلك الرواية تدلنا على مكانة غريغون ومقامه الرفيع في عين معاصريه. لان ذكر الغرائب والمعجزات يلحق بالرجال الممتازين كما يتبع الظل الاجرامَ التي انصبَّ عليها نور الشمس

٨

ولم تكن اعمال الموسل الفرنسيسكاني في سبيل الموارنة لتستغرق همتهُ بل كان ايضاً يُعنى بشؤون الروم المستوطنين في شمالي لبنان

فلما وصل الى سورية كان الجالس على كرسي انطاكية للروم دُورُوثاوس فهذا الحبر المتقلب بعد ان اظهر بواسطة وكيله ايزيدور مطران كيف قبولهُ بالمجمع الفلورنتيني جاهر بمعارضته للاتحاد برومة. وفاق الجميع نشاطاً في عقد المجلس الاورشليمي الذي حرَّم المجمع الفلورنتيني. وما اكتفى بهذا بل جاء القسطنطينية عام ١٤٥٠ واتفق مع زميلَيه الاورشليمي والاسكندري وعقد جلسة في كنيسة اغيا صوفيا جدَّدوا فيها حرم كل ما تقرَّر في فلورنسا وعزلوا غريغوريوس خلف البطريرك متروفانوس الذي اشتهروا بميله الى الاتحاد. وصاحب مختصر تاريخ طائفة الروم الملكيين الكاثوليكيين المطبوع في بيروت ١٨٨٤ (١ يذكر دوروثاوس في عدد البطاركة الكاثوليك لاسباب نجهلها وكنا احببنا لو اوردها

ومات دوروثاوس سنة ١٤٥٤ فخلفهُ ميخائيل ثمَّ يواكيم ومرقص. وهذا الاخير مات في ١٤٧٦(٢ وكلهم ابدوا التساهل بل اميالاً كاثوليكية. ولا ريب ان غريغون استفاد من هذه الاميال ويسوغ ان ننسب الى مساعيه ارسال موسى رئيس شمامسة انطاكية (من أسرة جبلة الكريمة ذات النسب الفرنجي الشرقي) العالم بآداب اللغتين اليونانية والسريانية (٣

---

١) وجه ١٤٠ يدعوه دوسيطيانوس ودوروثاوس. وليس الاسم الاوّل من الاسماء اليونانية

٢) وصاحب المختصر يذكر بعد ميخائيل ثاودوروس ويواكيم

٣) يظهر من هذا انَّ الروم الملكيين كانوا في تلك الايام لا يزالون يدرسون السريانية

الذي جاء رومة في اوائل ١٤٦٠ (١ باسم بطاركة اورشليم وانطاكية والكندرية حاملاً رسائل قبولهم بالمجمع الفلورنتيني. فقابلهُ البابا بيوس الثاني مقابلة سرّية وعلنيـة وفي ٢١ نيسان من السنة عينها اصدر نشرةً في هذا المسعى الجديد نحو الاتحاد (٢. واشتبه المؤرخون في صدق هذا المسعى فضلاً عن انهُ لم يأتِ بثمرة

ولسوء الطالع ان المؤرخين اهتموا برسالته لدى الموارنة فاتهم ان يوردوا لنا التفاصيل عن رسالته بين الروم الملكيين بسوريا. وعلى الكل انها لم تجدِ سوى اهتداء افراد لانَّ الحركة العظيمة نحو الاتحاد لم تبتدئ الّا في القرن السابع عشر كما لا يخفى

الطاولات الدائرة

(ردٌّ على جريدة البشارة للاب لويس شيخو اليسوعي)

انهُ لمن العجب العجاب انَّ ما كسدت سوقهُ وبارت سلعتهُ بين عُقّال الغربيين تراهُ بعد حين ولّى عنهم الأدبار فاجتاز البحار ورسا في سواحلنا ونشا في اصقاعنا نشوَ الادواء المعدية فلا يليق ان يأخذ بعقول الشرقيين وهم لا يدرون انَّ لقي الدَّسَم سمٌّ ومع العسل مُرٌّ

ومثال ذلك «الطاولات الدائرة» التي كثر فيها القال والقيل في الغرب قبل خمسين سنة فلمَّا لم يرَ الاجانب في مزاولتها خيرًا او بالحري آنسوا من مراسهـا شرًّا نبذوها عنهم غير مأسوفين عليها اللهمَّ الّا الجهّال منهم ويئس الجاهل للعاقل إماماً

ذلك وقد كان في املنا ان يُصبح ذكر الطاولات المتحركة نسيًا منسيًّا اذ سمعنا منذ

أمَّا ما يختصّ بشأن أسرة جبلة (Giblet) فراجع ريّ Rey «الأسرات فيما وراء البحر» ٣١٦ — ٣٣٦. وآخر هذه العائلة التي استقرَّت في قبرس بعد الصليبيّين مات فيها سنة ١٤٨٨. ولم يمكني ان اتثبَّت ان كان بقي بسوريا احدٌ من هذه الأسرة في زمن غريفون

١) وليس في سنة ١٤٦٣ وكان البابا المالك وقتئذٍ بيوس الثاني لا الثالث كما جاء في مختصر تاريخ الروم الملكيين وجه ١٧

٢) الاوراق المتعلقة بهذه المسألة محفوظة بين سجلّات الفاتيكان السرّيّة في الخزانة الرابعة